

أسئلة الاسقيا وأجوبة المغيلي

هذا الكتاب من ذخائر المغرب العربي ، ونحن إذ نعرض له بالتحليل والدراسة فى سلسلة التراث الأدبى للمغرب العربى ، وإنما نفعل ذلك على سبيل التوسع فى معنى الأدب ؛ فهو دراسة اجتماعية وسياسية واقتصادية وحرية ودينية .

وإذا كان الأدب مرآة تعكس انفعالات الأديب واهتماماته الانسانية فهما تنوعت اتجاهاتها واختلفت محاورها . فانه كذلك وينفس المقدار يعكس نبض الأمة ويرصد مشاغلها حكاما ورعية .

وليس ردة من الأدب ولا خروجا على رسالته ما نراه أحيانا عند ذوى الميول الاصلاحية من توسع فى مفهومه .

وإذا كنا - بسبب موضوعاتهم - لا ننحاز بكتابتهم الى النثر الأدبى الخالص .

وإذا كنا أيضا - بسبب تلوين هذه الكتابات بالصبغ الفنى الجمالى - لا ننحاز بها الى النثر العلمى الخالص .

فان هذه الكتابات تقع وقوعا طبيعيا - وأكاد أقول : أليا - فى المنطقة الوسطى بين النثرين العلمى والأدبى ، وهى ما تسميه الدراسات النقدية الحديثة بالأسلوب العلمى المتأدب .

من هذه الكتابات . أو من هذا الأسلوب .
« أسئلة الاسقيا وأجوبة المغيلي » .

فهو كتاب علم إذا نظرنا الى مضمونه ، وكتاب أدب إذا نظرنا الى صياغته . هو مزيج من الفكر والشعور ، وقد كتبه صاحبه بحماس المصلح الاجتماعى . وغيره رجل الدين الملتزم . وقد جاءت أفكاره لهدا مزجاة بالعاطفة ، عاطفة الحب للمسلطان والنصح له ، وعاطفة الحب للدين والحرص عليه .

وستعلم بيئة الكتاب وتاريخ تأليفه وظروف هذا التأليف ، ونحن نعرف بمؤلفه المغيلي ، وبمن ألفه له وهو :

الأسقيا محمد الأول ملك سنغاي وصاحب الأسئلة(*)

هو أبو عبد الله محمد بن أبي بكر الملقب بأمسكيا ، سراكولي الأصل ، هاجر أجداده في نهاية القرن الحادي عشر من جنوبي موريتانيا الحالية - وقد كانت جزءا من مملكة غانا - إلى بلاد النيجر ، وامتزجوا بالمصاهرة والنسب مع قبيلة سنغاي .

ولما كبرت تلك القبيلة وأحست بقوتها بعد دخول السراكوليين فيها ، وامتزاجهم بها ، بدأت تتوسع وتتحول إلى إمارة ، لكنها كانت إمارة صغيرة تابعة لمملكة مالي .

ولما بدأت عوامل الضعف تنخر في جسم هذه المملكة ، وعلى وجه التحديد في سنة ١٣٣٦ م استقلت إمارة سنغاي عنها بقيادة آل سني .

وفي عهد الأمير سني علي بارو [١٤٦٥ - ١٤٩٢ م] كان الأسقيا محمد أحد الضباط البارزين في جيشه ، والرجل المسئول عن سياسة التوسع ، لكن الملك سني علي كان حاكما مقسدا ، وربما كافرا ملحدا ، كما سنرى في الأسئلة والأجوبة .

ولهذا رأينا الأسقيا محمدا يقوم بثورته عليه ويسقطه عن عرشه سنة ١٤٩٣ م ، وقد انتهى بهذا حكم آل سني الذي استمر (١٥٧) سبعا وخمسين ومائة سنة .

ولما كان الأسقيا محمد قد جاء إلى الحكم عن طريق ثورة ؛ فإنه رأى لزاما عليه أن يوطد ملكه ، وأن يثبت وجوده على عرش سنغاي .

ومن هنا كانت اصلاحاته الكثيرة ومسايرته للفقهاء ولرجال الدين ، ولعل أصله السوداني كان أحد عوامل نجاحه .

* فيل في تبرير لقب [اسقيا] أو [امسكيا] : ان بنات سني على لما قام محمد الاول بالثورة على أبيهين وبلغهن ذلك بلن : [امسكيا ؟] أي اهو نفسه ؟
فالتصوّر تصاوّلهن بمحمد الاول من ذلك الوقت .

أما آل سنى فهم كما زيغ بربر ، جاءت أصولهم من منطقتة طرابلس الغرب مرورا بفران الى السودان .

ولم تمض سوى ثلاث سنوات حتى كان الأسقيا محمد قد تحول بمملكته من الشكل القبلى الى الشكل الرطنى الذى يسمح لجميع القبائل بالمشاركة فى الشؤون العامة للبلاد .

وفى سنة ١٤٩٦ م سافر للحج .

وقد أنفق فى هذه الرحلة ثلاثمائة ألف قطعة ذهبية . فانه اشترى فى مكة أرضا ودارا يأوى إليها الحجيج السودانى ، وقد ظلت تعرف بـ[رواق التكرور] ولكثرة نفقاته قوبل باحترام كبير من جانب شرفاء مكة ، وقلده كبيرهم مولاي العباس شارات السلطنة . ولقب [أمير السودان الغربى وخليفة السودان كله] .

وقد سعد الأسقيا بذلك سعادة عظمية ، ولا عجب : فهو قد كسب المكانة السياسية على أساس شرعى فى نظر رعاياه وغيرهم .

واثر رجوعه من الحج بروح معنوية عالية ، انهمك فى الفتوح الدينية . فأخضع بلاد موسى ، وبسط نفوذه على معظم أقاليم السودان الغربى .

وقد بلغت سنغاي على عهده من التوسع ما لم تبلغه فى تاريخها الطويل كله ، بل ما لم تبلغه مملكة غيرها فى طول السودان وعرضه .

وفى آخر أيامه خلعه أكبر أبنائه وولى عهده المسمى موسى ، وكان ذلك فى سنة ١٥٢٨ م .

وعلى الرغم من أن أبنائه وأحفاده الذين حكموا بعده لم يكونوا مثله فى القوة ولا فى التمسك بأهداف العدل ، الا أن مملكة سنغاي ظلت بقوة دفعة عظيمة ومسيطره على جميع ما كان بيده . حتى أنهى جيش المنصور الذهبى السعدى عهد آل اسقيا بانتصاره على جيش اسحق الثانى آخر

السلاطين الأسقيين سنة ١٥٩١ في معركة [توندينى] الى الشمال الغربى
من [غاو] العاصمة .

وبهذا يكون حكم آل أسقيا لسنغاي قد استمر مدة ثمان وتسعين سنة
من ١٤٩٣ الى ١٥٩١ م (١٤) .

المغلى مؤلف الأجوية

هو محمد بن عبد الكريم بن محمد المغلى ، والمغلى نسبة الى قبيلة
مغيلة التى كانت تقيم بالقرب من تلمسان .

وإذا كان تاريخ ولادته مجهولا ، فان تاريخ وفاته هو سنة ٩٠٩ هـ .

كان من أبرز المثقفين وقادة الفكر فى عصره ، وقد انتقل بعد اتمام
دراسته من الشمال الى الجنوب فسكن الصحراء ، ولا يعرف لذلك سبب
مؤكد ، ولو أنه يمكن القول بأن حملته على اليهود الذين كانوا مسيطرين
فى أهم مدن الشمال على مصادر التجارة والمال ، هى التى ضيقت عليه فى
عيشه واضطرتته الى الهجرة ويسهل تصور ذلك اذا علمنا أن اليهود كانوا
قد اشتروا نهم بعض المسئولين الرسميين وجعلوهم صنائع لهم وسيوفا
يدسلطونها على خصومهم .

ولم يكن حظه فى الجنوب بأحسن منه فى الشمال ، فقد وجد اليهود
يشاركون بنشاط كبير فى حركة القوافل التجارية مع السودان ، ويتصرفون
بحرية أكثر من الحرية التى يتمتعون بها فى الشمال، أى أن المغلى كان فى
انتقاله من الشمال الى الجنوب بسبب اليهود كالمستجير من الرمضاء
بالنار .

لكنه هذه المرة كان ايجابيا بدعوته الملحة الى محاربتهم . وبهدمه مع
بعض أصحابه عددا من بيعهم بمدينة [توات] وما جاورها .

ولما لم يجد لليهود آخرأ انتقل الى [كانو] حيث اتصل بأمرها
وكتب له رسالة أرشده فيها الى التزام الجادة الاسلامية فى حكمه .

(١) انظر « مملكة سنغاي فى عهد الاسيفيين » تأليف رابح بونار طبعة الشركة الوطنية
للنشر والتوزيع بالجزائر سنة ١٩٧١ م .

وبعد أن درس بمساجد [كانوا] مدة ، انتقل الى [غار] واتصل بالأمير أسقيا محمد الكبير . فأكرمه هذا الأخير ، وكتب عدة أسئلة . رجاء الاجابة عنها طبقا لمبادئ الاسلام .

وينسب المؤرخون للمغلي أربعة عشر كتابا معظمها فى الفقه، وبعضها فى اللغة .

هذا عدا رسائل الافتاء ومكاتبات الاصلاح .

ومن رسائل الافتاء ومكاتبات الاصلاح أجوبته على أسئلة الاسقيا .

وقد كان المغلي بعلمه الواسع ويعمله الشجاع فى حث الملوك والرؤساء على سلوك سبيل الحق ، صاحب شخصية قوية استطاع بها التأثير على الناس فى السودان حتى صار اسمه مقرونا لديهم بلقب [الامام] .

ولم يكن هذا حاله فى السودان وحده ، بل كان هذا حاله فى المغرب قبل مجيئه الى السودان .

لقد كان المغلي من الصراحة والجرأة بحيث شهر بانحراف المسئولين فى المغرب عن جادة الصواب ، وأنذرهم عاقبة أمرهم وتنبأ بهجوم البرتغال والأسبان على بلادهم . وقد صدقت نبوءته .

اهمية الكتاب

تتمثل أهمية هذا الكتاب فى أنه يلقى الضوء على الأوضاع الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والدينية فى مملكة سنغاي على عهد الأسقيا محمد الأول الذى يبدو صريحا وهو يسأل المغلي عن عدد من الأمور التى كانت تشغل باله ، ويطلب منه الاجابة عنها على حسب تعاليم الاسلام ، أما المغلي فقد رأيناه من خلاله رجل دين واصلاح .

ومن نذكر به وبآرائه التقدمية الجريئة ابن خلدون وابن تيمية وعز الدين

ابن عبد السلام جمال الدين الأفغانى والشيخ محمد عبده ومحمد اقبال
وعبد الحميد بن باديس والشيخ حسن البنا والشهيد سيد قطب .

كما رأيناها عالمنا واسع الاطلاع طويل الباع فى كل ما يتصل بشئون
الدين والدنيا وصاحب قلم مطواع يعالج به كل ما يخطر له على بال ، ولو
خرج فى ذلك عن حدود السؤال .

وإذا كان الكتاب بشقيه [الأسئلة والاجوبة] يهتم المؤرخين لأنه الوثيقة
الوحيدة التى جاءتنا عن عهد الأسفيين فى سنغاي ، فإنه كذلك يهتم رجال
العلم والأدب والسياسة والحرب والاقتصاد والاجتماع ، وهو الى ذلك يعطى
صورة من التبادل الثقافى والفكرى بين المغاربة وجيرانهم السودانين .

وأول خطرة على هذا الطريق كانت تلك الفرقة الصغيرة التى دفع بها
عقبة بن نافع فى اتجاه فزان فوصلت الى تشاد .

وقد بلغ ازدهار الثقافة الاسلامية بالسودان الغربى مرحلة الأوج فى
القرنين الخامس عشر والسادس عشر . وفى هذين القرنين بالذات ، وعلى
وجه التحديد ما بين سنة ١٥٠٢ . ١٥٠٢ وضع هذا الكتاب بالاشتراك بين
المغلبى رجل الدين والمصلح الاجتماعى بل عالم الاجتماع ، وبين الأسفيا
محمد الأول رئيس دولة سنغاي وهو ملك كان يهتم كل الاهتمام باصلاح حال
رعيته وتقويم سلوكها بما يتلامم وقوانين الاسلام .

وقد صدر الكتاب بتحقيق الأستاذ الفاضل عبد القادر زيايدى عن
الشركة الوطنية للنشر والتوزيع بالجزائر المحمية سنة ١٩٧٤ م .

عرض وتحليل الكتاب :

جاء هذا الكتاب فى سبع مسائل ، فى كل مسألة أكثر من سؤال ، أجل فليست مسأله بسيطة بل مركبة ، بمعنى أن كل مسألة مكونة من خيوط كثيرة تكون جديلة كبيرة تسمى مسألة .

وها هى ذى فى دراسة موجزة مركزة ، يغنى فيها الشاهد عن الغائب ، المنظور عن المستور ، وعلى من يريد الاستيعاب أن يقرأ الكتاب كله .

المسألة الأولى

تبدأ المسألة الأولى بل يبدأ الكتاب بعد حمد الله والصلاة والسلام على رسول الله هكذا :

من عبد الله تعالى محمد بن عبد الكريم بن محمد المغيلى الى الامير الحاج أبى عبد الله محمد بن أبى بكر الملقب بأسكيا .

سلام عليكم ورحمة الله وبركاته ، أما بعد . أعاننا الله واياك على رعاية ودائعه ، وحفظ ما أودعنا من شرائعه ، فاذك سألتنى عن مسائل : أولها : - أنك قلت : مذ من الله علينا بالاسلام ، أصابتنا مصيبة فى هذا البلد : لعدم الامانة فيمن ينتسب الى العلم من قراء بلادنا ، ومن صفتهم أنهم لايفقهون من العربية الا قليلا من كلام عرب بلادهم ، على تصحيف وتحريف وعجمة عظيمة بحيث لا يعرفون مقاصد العلماء ولا موضع التصحيف والتحريف ومع ذلك لهم كتب يدرسونها وحكايات وأخبار ، ومنهم قضاة ومفسرون يتكلمون فى دين الله ويزعمون أنهم من العلماء الذين هم ورثة الانبياء . وأنه يجب علينا الاقتداء بهم .

وأنا أطلب من الله ثم منك أن تفتى لى بما علمك فى هؤلاء القراء :

هل يجزى لى أن نعمل بقولهم فى دين الله . ويخلصنى تقليدهم عند الله ؟ أو لا يحل لى ذلك ، ويجب على البحث عن نوليه الحكم ونقلده فى أمور الدين ؟

وبين لنا صفة من يصلح لذلك شرعا .

تم أطلب منك أيضا ان نشفى غليلى بترتيب الاجوبة على هذه الاسئلة
وبزيادة ما تبسر لكم من النصيحة أيضا . ص ٢١ - ٢٢

انتهى السؤال الاول من المسئلة الاولى ، ونبادر فنقف منه عند نقطتين
هامتين للايضاح والشرح .

النقطة الاولى ان الاسقيا محمدا اشار بل صرح بأن قسراء بلده
وفقهاءها من أصل عربى . وانظر قوله : - [لا يفقهون من العربية الا قليلا
من كلام عرب بلادهم] . وهى اشارة تاريخية ذكية وصائبة ؛ فقد أثبتت
ابحاث العلماء أنه قد حدثت هجرات لجماعات من شبه الجزيرة العربية -
وبخاصة المنطقة الجنوبية - الى أفريقية ولو أن معظم هؤلاء المهاجرين
كانوا يستقرون فى الشرق من أفريقيا ، ولا يصل الى السودان الغربى منهم
الا القليل . وقد عوض ذلك أن العلاقات بين المغرب والسودان كانت وثيقة
وقوية ؛ فقد حصلت هجرات عديدة من بلاد المغرب الى السودان وبالعكس .
وما هو ذا المغيلى فى السودان مفتيا للملكى (كانو) و (غاو) ومستشارا
خاصا لهما .

النقطة الثانية

ما يبدو من تناقض بين وصف الاسقيا لرجال الدين فى دولته بأنهم
لا يفقهون من العربية الا قليلا على تصحيف وتحريف وعجمة عظيمة بحيث
لا يعرفون مقاصد العلماء ، ولا موضع التصحيف والتحريف ، ثم يعطف
بقوله : - « ومع ذلك لهم كتب يدرسونها ، وحكايات وأخبار ، ومنهم قضاة
ومفسرون » .

ولا مخرج لنا من هذا التناقض الا بجعل كلمة (لهم كتب) بمعنى عندهم
كتب . فليس بلازم . بل ولا يعقل وهذا حالهم أن تكون من تأليفهم .

والآن : مع جواب المغيلى عن سؤال الاسقيا ، قال بادئا بنصحه : -

اعلم أعاننا الله واياك أن الملك كله لله . وما النصر الا من عند الله فكن
له عبدا بطاعته يكن لك ربا بحفظه واعانتته ، انما أنت مملوك لا تملك شيئا ،
وقد رفعك مولاك على كثير من عبادته لتصلح لهم دينهم ودنياهم ، لا لتكون
سيدهم ومولاهم ، وانت فى جميع أمرك راع لا مالك ، وكل راع مسئول عن

رعيتيه ، فانظر لنفسك قبل الفوت فانه لا بد لك من الموت ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما من أمير عشرة الا يؤتى به مغذرا لا يوم القيامة حتى يفكه العدل أو يوبقه الجور » . وقال : -

اللهم من ولى من لأمر أمتي شيئا فشق عليهم فاشقق عليه ، ومن ولى من أمر أمتي شيئا فرفق بهم فارفق به » .

أكتب كلام المغيلى وأنا مبهور ، وكم أود أن يقرأه علماءنا الأفاضل فى شتى المجالات ، وخاصة مجالات الوعظ والارشاد ، وعلى وجه أخص من يخطب منهم حتى خطبة الجمعة - وهى خطبة شرعية لها شروط وأركان - نى حضرة الملوك والرؤساء أو من هم دون الملوك والرؤساء .

وترن فى أعماقى كلمات المغيلى ملك سنغاي وخليفة السودان كله : فهو بادئ ذى بدء يصادره ملكا ، ولا يخلى بينه وبين وظيفته الرسمية فى الدولة قبل أن يعظه ويذكره ، خشية أن يركب الغرور ، ويبعده الكبر عن الناس .

وأعيدوا معنى قراءة هذه الرقع الارجوانية : « انما أنت مملوك لا تملك شيئا ، وقد رفعت مولاك على كثير من عباده ، لتصلح لهم دينهم ودنياهم لا لتكون سيدهم ومولاهم أنت فى جميع أمورك راع لا مالك . أنظر لنفسك قبل الفوت ؛ فانه لا بد من الموت » .

يا أبنائى الوعاظ ، بل يا أبائى الوعاظ ، احفظوا هذا الكلام ووازنوا بينه وبين ما تقرلونه فى مثل هذا المقام ، ثم انظروا فى مرايا ضمائرکم ، ومن فضلکم لا تحكموا على أنفسکم بالاعدام .

والوضعية السلمية للملك أو الرئيس أن يناط به اصلاح دين الناس ودنياهم لا أن يكون سيدهم ومولاهم ، أى أن منصبه تكليف لا تشريف .

ويا من تؤمنون بجان جاك روسو ونظرية العقد الاجتماعى .
ثم يا من تنكرون أن الاسلام دين ودولة .

تعالوا فانظروا ماذا قال المغيلى منذ ست وسبعين وأربعمائة سنة



ولا يقف المغيلى عندما طلب منه الاجابة عنه ، فها هو ذا يستطرد الى موضوع جديد بقوله : - وكيف يعمل مع أقاربه ؟

قضية عثمان اذن :

وهى قضية مؤكدة : لأنها متجددة وقائمة فى كل زمان ومكان ، وهى شىء طبيعى : فالحاكم - أى حاكم - ليس نباتا شيطانيا ، وانما هو ابن وطنه وأمنه - وقبل ذلك ابن بيته وأسرته . فماذا يعمل مع أقاربه ؟ جل ماذا يعمل ؟

يجيب المغيلى عن هذا السؤال بقوله : -

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما من وال الا وله بطانتان : بطانة تأمره بالمعروف وتنهيه عن المنكر ، وبطانة لا تألوه الا خبالا ، فمن وقى شرمها فقد وقى .

اذا علمت ذلك أيها الامير فعليك بأمرين :

الاول : أن تبعد عنك أهل الشر ، وأن تقرب منك أهل الخير لأن من الغالب على الانسان التأنس بقريته ، والميل الى طبعه وتزيينه ، فمن قريته من نفسك فقد مكنته من أذنك ، ومن مكنته من أذنك فقد مكنته من قلبك ، لأن الاذن زمام القلب ، ولذلك قال مالك بن أنس : -

لا تمكن زائغ القلب من أذنك ، وقال بعض الحكماء : -

عن المرء لا تسأل وسل عن قرينه فكل قرين بالمقارن يقتدى

وفى ذلك قلت : -

اذا قرب السلطان أشرار قومه وأعرض عن أختيارهم فهو طالح
وان قرب السلطان أختيار قومه وأعرض عن أشرارهم فهو صالح
وكل امرئ ينبك عن قرينه وذلك فى أمر البرية واضح

وقد بين رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك كله بقوله : -

اذا أراد الله بالامير خيرا جعل له وزير صدق ، ان نسى ذكره ، وان ذكر أعانه ، وانما أراد الله به غير ذلك جعل له وزير سوء ، ان نسى لم يذكره ، وان ذكر لم يعنه .

والثانى : - أن تسأل أهل الذكر عن كل ما لا تعلم حكمه من تصرفاتك كلها لتحكم بما أنزل الله فى كل ما حملك منها ، قال الله تعالى : -

« ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون » ، « ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون » ، « ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون » ، ثم قال تعالى « واسألوا أهل الذكر ان كنتم لا تعلمون » .

والذكر هو القرآن ، وأهله من اجتمع فيه وصفان : العلم والتقوى ، لأن بالعلم يعرف الرشيد من الغى ، وبالتقوى يأمر بالرشد وينهى عن الغى .

فلا تقلد فى دينك الا من ثبت أنه عالم تقى ؛ لأن من لم يثبت أنه عالم يخاف أن يضل ويضل بعماه ، ومن لم يثبت أنه تقى يخاف منه أن يضل بهواه ، ألم تر الى قول الله تعالى : - يأيها الذين آمنوا ان كثيرا من الاحبار والرهبان ليأكلون أموال الناس بالباطل ويصدون عن سبيل الله ، .

وبنظرة نقدية نافذة يغربل المغيلى علماء وقته فيقول : -

ان كثيرا من علماء هذه الامة وعبادها يأكلون أموال الناس بالباطل ويصدون عن سبيل الله ، وبسبب هؤلاء العلماء والعباد شاع الفساد فى جميع البلاد ، فالجهاد فيهم وفى أنصارهم أفضل من كل جهاد ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : -

« اتنا من غير الدجال أخوف عليكم من الدجال ، فقيل ممن يا رسول الله ؟ قال من علماء السوء » .

وعن أبى حذيفة اليمانى رضى الله عنه أنه أخذ حصاة بيضاء فوضعها فى كفه ثم قال : ان الدين قد استضاء استضاءة هذه الحصاة ، تم أخذ كفا من تراب فجعل يدور على الحصاة حتى واراها ثم قال : - والذى نفسى بيده ليجيئن أقوام يدفنون الدين هكذا (كما دفنت هذه الحصاة) . ولتسلكن سبيل الذين كانوا من قبلكم حذو القدة بالقدة والنعال بالنعال .

فمن أعظم الواجبات على أمراء المسلمين حفظ الدين بالألا يتركوا أحدا يتكلم فى دين الله بتعليم ولا حكم ولا فتوى حتى يكون من أهل العلم والتقوى ، ولذلك لما قدم على بن أبى طالب رضى الله عنه البصرة دخل جامعها فوجد القصاص يقصون ، فأتاهم حتى جاء الى الحسن البصرى رضى الله

عنه فقال : يا فتى : انى سائلك عن شيء فان أنت أجبتنى عنه أبقيتك ،
والا أقتك كما أقت أصحابك .

- وكان قد رأى عليه سمنا وهديا - قال الحسن : سل عما شئت
فقال : - ما ملك الدين ؟ قال : الورع . فقال : وما فساد الدين ؟ قال : -
الطمع ، قال اجلس مثلك يتكلم على الناس .

أليس من أعظم الواجبات على كل أمير أن يطرد عن طريق الدنيا جميع
المفسدين ؟ فكيف لا يجب عليه أن يطردهم عن طرق الدين !!؟

وقد ثبت بما لا يدع مجالاً للشك أن كثيرا من قراء هذه الأمة انما هم
من علماء السوء ، وعلماء السوء انما هم لصوص الدين ، وأضر على
المسلمين من جميع المفسدين ، ولذلك قال ابن المبارك رضى الله عنه : -

وهل أفسد الدين الا الملوك وأحبار سوء ورهبانها-

وقال بعض الادياء : -

قضاة زماننا أضحوا لصوصا عموما فى البرية لا خصوصا
فلو عند التحية صافحونا لسلاوا من خواتمنا الفصوصا

واستكمالا للاجاية ووصولاً بها الى بؤرة الشعور من الملك السائل هذا
الكلام الاستطردى للمغيبلى قال : -

فان قلت : قد بينت وأوضحت أن كثيرا من علماء هذه الأمة ليسوا من
اهل الذكر ، انما هم من علماء السوء الضالين الذين يأكلون أموال الناس
بالباطل ويصدون عن سبيل الله ، ولكن كلا منهم يقرأ القرآن والحديث وكثيرا
من نصوص الكتاب ويزعم أنه من اهل الذكر ، وينكر أنه من علماء السوء ،
فبأى شيء نفرق بين اهل الذكر وعلماء السوء ؟ وكيف يفعل من ولى شيئا
من هذا الامر ، ولم يجد فى بلده أحدا من اهل الذكر ؟

فالجواب والله الموفق للصواب أن الله يجعل لكل هاد من اهل الذكر
انوارا فى كل عصر من الأعصار هداية لسهم الجنة وحجة على سهم النار،

وبيان ذلك أن حكمة الله ألا يعذب قوما حتى يبين لهم ما يتقون ، وتلك

سنة الله فى الأولين والآخرين . لتلايقولوا يوم القيامة انا كنا عن هذا غافلين .

ومن حكمته كذلك أن جعل ذلك البيان على لسان البشر من الانبياء فى الأولين ومن أهل الذكر فى الآخرين ، لأن الله جعلهم للهداية وإقامة الحجة فى هذه الأمة كالانبياء فى الامم الماضية ، ولذلك روى أن فى رأس كل قرن يرسل الله للناس عالما يحدد لهم دينهم .

ولهذا العالم علامات متى نبيناها فيه تعين أنه من الصالحين ، أما علماء السوء فمن أبين علاماتهم أنهم لا يصلحون ولا يتركون من يصلح . فمثلهم كمثل الصخرة فى باب النهر ، لا تشرب ولا تترك من يشرب .

وبعد كلام طويل من هذا القبيل يحس المغيلى - كما أحسنا - أنه غير واضح ، وبناء عليه غير مقنع ، وهو لهذا يعود فيبدأ من حيث انتهى ويقول على سبيل القطع : -

وان لم تفهم ما قررناه وأشكل عليك شىء مما ذكرناه ، فاعلم أن القراء كلهم ثلاثة أنواع : -

الاول من تبين لك بلا شك أنه عالم تقى .

الثانى من تبين لك بلا شك أنه ليس بعالم أو أنه ليس بتقى .

الثالث من شككت فيه .

فمن تبين لك أنه عالم تقى فهو من أهمل الناكر فاسأله عن دينك وقلده . ومن تبين لك أنه ليس بعالم وأنه ليس بتقى ، فليس هو من أهل الذكر فلا تقلده فى شىء من دينك ولا تسأله عنه .

ومن لم يتبين لك حاله فلم تعلم : هل هو عالم تقى أو لا ، فقف عنه أيضا ، ولا تقلده فى شىء من دينك ولا تسأله . ولو كان فصيحاً عربياً يحفظ ما فى جميع الكتب حتى يتبين لك بلا شك أنه عالم تقى .

إذا علمت ذلك لم يلتبس عليك أمر القراء فى هذا الزمان ووجب عليك أن تطلب عالماً من أهل الذكر .

ثم أعلم أن تأخيرك النظر فى الامور حتى تستفتى من بعد عنك من أهل الذكر تضييع لكثير من الامور التى تعين عليك اصلاحها عاجلا ، فبادر بالنظر فى جميع الامور التى تعين عليك اصلاحها عاجلا ، واعلم أن الامور كلها ثلاثة أنواع : -

فكل أمر علمت أنه مما أمر الله به فافعله، فانه خير ولا يأتى منه الا الخير وكل أمر علمت أن الله نهى عنه فاتركه ، فانه شر ولا يأتى عنه الا الشر .

وهذان النوعان كثير ، فاذا شغلت باصلاحهما ونصحت فيهما كثر خيرك قولا وفعلا ، وملأت بلادك قسما وعدلا .

وكل أمر شككت فى حكمه ، وخفت من اثمه فعليك فيه بالاحتياط الصارف عن الشبهات ، فان الجنة حفت بالمكاره وحفت النار بالشهوات . فاقطع الشك باليقين ؛ واحتط لدينك اكثر ما تحتاط لديناك فى كل حين .

والمغىلى هنا يضع الموازين للملك ، ليزن بها الرجال والاعمال ، ويزوده بما يلزمه فى مجابهة الامور التى تستجد حتى لا ينتظر الفتوى من أناس قد يبعدون عنه ، وهو ينطلق فى هذا من اعتبارين : -

الاول : ان على الانسان أن يجتهد .

الثانى : أن على الانسان ألا يتردد فى اختيار ما يراه مناسبا حرصا على البت السريع وبخاصة فى الاحوال التى يكون التأنى فيها مضية للوقت .

وتمكيننا لعوامل الفساد من الانتشار فى الارض .

ولم يتقو المغىلى بقول الرسول صلى الله عليه وسلم : « من اجتهد فأصاب فله أجران ومن اجتهد فأخطأ فله أجر » ، لم يتقو المغىلى بهذا الحديث الشريف ، لأنه أراد لكلامه أن يكون عقليا أكثر منه نقليا ، ولعل هذا هو السر فى أنه ساق كثيرا من الأمثلة التى تثبت أن درء المفاسد مقدم على جلب المصالح .

ولا بأس على الامام اذا تحرك من هذا المنطلق . لأنه اذا كان جلب المصلحة واجبا ، فانه واجب على التراخى ، أما درء المضره فهو - مع أنه واجب - واجب على الفور .

المسألة الثانية

تدور هذه المسألة حول أمور كثيرة منها معتقد سنى على وسلوكه ، فقد كانت أمه من أهل بلاد فار وهم قوم كفار يعبدون الاصنام من الاحجار والأشجار ، يتصدقون لها ويطلبون حوائجهم عندها ، فان أصابوا خيرا زعموا أن تلك الأصنام هي التي أعطتهم ، وان لم يصيبوا رأوا أنها منعتهم .

وكان سنى على من صغره الى كبره كثير الإقامة عندهم فجرى على معتقدهم وتطبع بطباعهم ، أجل انه كان ينطق بالشهادتين ويتكلم بالفاظ المسلمين مع عدم معرفته بحقيقة ما ينطق به ، انما يقول ذلك بلسانه ، وربما سمع اسم النبی فقال : صلى الله عليه وسلم ، ومع ذلك يعبد الأصنام ويصدق الكهان ويستعين بالسحرة ونحوهم .

ومن صفته انه مارؤى فى جامع ولامسجد يوم جمعة ولاغيره ، وفى دائرته ودياره ألوف من الرجال والنساء لا يستطيع أحد منهم أن يصلى صلاة ولا أن يصوم يوماً من رمضان خوفاً منه أن يعاقبه على ذلك ، وأما هو فى نفسه فلم يكن يحفظ الفاتحة ولا غيرها ولا يصلى صلاة مكتوبة فى وقتها ولا يقوم ويركع ويسجد فيها ، انما يترك الصلوات الخمس الى آخر الليل او الى ضحى الغد ثم يجلس ويومئ الى السجود من جلوسه وهو صحيح قوى لاعلة به ، ولايقراً فى صلاته تلك شيئاً ، انما يذكر اسم صلاته فيقول بدلا من ركوع المغرب : المغرب ، وبدلا من سجودها : المغرب ، وكذلك فى سائر الصلوات . ومن صفته كذلك انه لا يتوقف فى النساء على نكاح ولاغيره من الشروط الاسلامية ، بل كلما أعجبه امرأة فى جميع مملكته أخذها وأدخلها فى بيته وفرأشه ولا يبالي بزوجها ولا أحد ، ويجمعها مع أمها فيتلذذ بهما معا .

وانه حلل دماء المسلمين وأموالهم فقتل من القراء والفقهاء والنساء والصبيان والرضع وغيرهم ، وأفسد منهم مثل الذكر والأنثيين وقطف الأنف واليدين ونهب من الأموال وسبى من الحریم وباع من الأحرار ما لا يحصى ، وفساده فى الأرض بذلك ونحوه مشهور ولم يسمع قط بمثله فى الاسلام ، ولم يزل على ذلك مدة عمره حتى مات [ص ٣٤ - ٣٨]

هذا الواقع البشع لسنى على قد يكون أمرا مبالغا فيه من الأسقيا تبريرا لثورته عليه وخلعه له .

لكن يبقى أن لهذا الوضع السيئ أصلا يرجع إليه وتاريخا يثبت صدقه ، فقد كانت أمور المسلمين في السودان الغربي قريبة مما ذكر الأسقيافي سؤاله الموجه منه الى المغيلي :

دخل الناس في الاسلام واعتنقوه مع الاحتفاظ بعاداتهم الوثنية ، والابقاء على سلوكهم القديم ، أى أن اسلامهم كان سطحيا لاعمق فيه ولا لب له لأنه لم تنفر من كل طائفة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين وليندروا فومهم اذا رجعوا اليهم لعلهم يحذرون .

وسنى على واحد من شعبه بل اكثر من ذلك كانت أمه وثنية وكذلك كان اخواله، وقد نشأ فيهم وتربى بين أحضانهم ، فلا عجب أن كان اسلامه مشوبا بهذه المظاهر الوثنية التي كانت جذورها فيه أمكن من جذور الشعائر الاسلامية .

وننتقل الى اجابة المغيلي لتري بماذا رد ؟

قال : - الجواب والله الموفق للصواب أن سنى على وجميع اعوانه واتباعه وأنصاره ، لاشك أنهم من أظلم الظالمين الفاسقين الذين يقطعون ما أمر الله به أن يوصل ، ويفسدون في الأرض ، وجهاد الأمير فيهم وأخذه السلطنة منهم أفضل الجهاد وأهمه .

وأماقولك هل هم كفار أم لا ؟ فلا يكفر أحد بذنب من أهل القبلة ، انما يكون التكفير بأحد أمور ثلاثة .
الأول : أن يكون نفس اعتقاده كفرا كاتكار الصانع أو صفة من صفاته التي لا يكون صانعا الا بها ، أو جحد النبوة .

الثاني : صدور ما لايقع الا من كافر وان لم يكن في نفسه مثل استحلال شرب الخمر ، وغصب الأموال وترك فرائض الدين والقتل والزنى وعبادة الأوثان والاستخفاف بالرسل وحجد شيء من القرآن .

فهذان الأمران الاجماع على من ثبت عليه واحد منهما حكمنا بكفره
الثالث : أن يقول قولا يعلم أنه لا يصدق الامن لا يعلم الله تعالى ، وأن كان قائله يزعم أنه يعرف الله .
وهذا مختلف فيه بين العلماء ، هل يكفر به أو لا ، وعليه اختلفوا في تكفير المعتزلة ونحوهم من أهل البدع .

وإذا علمتم ذلك تبين لكم أن الذى ذكر تموه من حال سننى على علم على الكفر بلا شك ،

فان كان الأمر كما ذكرتم فهو كافر ، وكذلك كل من عمل بمثل عمله ، بل يجب التكفير بما هو أقل من ذلك .

وأما استرقاق أولادهم فلاأراه وان ثبت عليهم موجب الحكم بالتكفير، لأن الكفار ثلاثة أصناف .

الأول : من هو كافر صريح بالأصالة كالمجوس ونحوهم ممن ورث الكفر الصريح عن آبائه .

الثانى : من كان مسلماً ثم ارتد ارتداداً ظاهراً فصرح أنه خرج عن دين الإسلام ودخل غيره من أديان الكفر .

الثالث : من يزعم أنه مسلم وحكمنا بكفره ، لأنه صدر منه ما لايقع فى الظاهر الا من كافر كما ذكرتم فى سننى على .

فالكفار بأصالة الكفر تسبى ذراريهم ونسأؤهم وتقسم أموالهم لاختلاف فى ذلك بين العلماء .

وفى الكفار بالارتداد خلاف : قال ابن القاسم فى أهل حصن من المسلمين ارتدوا عن دين الإسلام الى الكفر : لاتسبى ذراريهم ونسأؤهم ، وأما أموالهم فهى فىء للمسلمين .

قال ابن رشد : وهذا هو الصحيح من جهة النظر ، لأن المرتدين أحرار من أصلهم قال : والى مذهب ابن القاسم فى المرتدين ذهب عامة العلماء وأئمة السلف .

وإذا علمتم ذلك فكل من فعل شيئاً من تلك الأفعال الموجبة للتكفير يستتاب فان تاب ترك ، وان لم يتب قتل بالسيف كفراً ، ولا تسترق أولادهم انما يجبرون على الإسلام [ص ٣٩ - ٤٠]

والمغلبى فى افتائه وأرائه مرتبط بالدين ومعتصم بحبله المتين ، فهو قد أجاب اجابة موضعية غير متأثر بالحملة العدائية القوية من جانب

الأسقيا ضد سلفه سنى على ، لم يلف ولم ينافق بلم لم يتكلم كلاما موجها .

العهد على الراوى فيما أفتى به المغيلى ، والراوى هنا هو الأسقيا نفسه ، فان كان صادقا فله صدقه ، وان كان كاذبا فعليه كذبه ، أما المغيلى فهو على الحياض تماما . لا انحياز منه الا الى الله ولا ولاء لراية سوى راية الاسلام ،

ولنقرأ معا قوله التسليم الحكيم : « واذا علمتم ذلك تبيين لكم أن الذى ذكرتموه من حال سنى على علم على الكفر بلا شك ، فان كان الأمر كما ذكرتم فهو كافر . وكذلك كل من عمل بمثل عمله » .

ونقف مما قرأناه عند قوله : « تبيين لكم أن الذى ذكرتموه من حال سنى على علم مع الكفر » انه هنا قد ألصق الدعوى بمدعيها وقرنها به بل أكثر من ذلك البسها له ، أما هو فلا شأن له بصديق أو كذب ما قاله الأسقيا عن خصمه ،

وما أعجب خبر [أن] فى العبارة السابقة وهو [علم على الكفر] أى علامة عليه .

يريد أن يفزل : أن الكفر هو ما ذكرتموه من أعمال وأقوال نسبتوها الى سنى على . لم يحكم صراحة بكفر سنى على ، كل ما هناك أن ما ذكره الأسقيا سبب للكفر بل أكثر من ذلك هو اسم له وعلم عليه .

وانظروا الى هذا التشكيك الصارخ فى كلام الأسقيا : [فان كان الأمر كما ذكرتم فهو كافر . وكذلك كل من عمل بمثل عمله] .

ان الجواب هنا متوقف على الشرط ، والمحمول قائم على الموضوع ، وليس هذا افتاء فى شأن سنى على وحده ، بل انه افتاء فى قضية عامة ، وهى تمس كل من مارس الأعمال السابقة .

ولا يسعنا هنا الا أن ندوه بشجاعة المغيلى وجراته .

المسألة الثالثة

هذه المسألة تدور في فلك المسألة السابقة وتجرى في محيطها ؛ لأنها من قبيلها ، ولو عمل الأسقيا ذكاهه لاستغنى في موضوعاتها عن افتراء المغيلي .

فهو يقول في مسألته هذه : اننى ملكت البلاد بعد سننى على وكان قه جمع أمرا لا وخداما من وجوه شتى ، وجئت فاستوليت على ذلك كله ، ثم تركت كل مال من ادعى أنه حر مسلم ، ولما تحريت علمت أنهم يشهدون ويقولون : لا اله الا الله محمد رسول الله ، لكنهم يعتقدون مع ذلك أن هناك ما ينفعهم ويضرهم غير الله جل وعلا :

لهم أصنام يعظمونها وينبجون لها ولا يقطعون أمرا صغيرا أو كبيرا الا بأمر سدنتها ، وقد زجرتهم عن ذلك كله فأبوا الا السيف .

فما الذى أفعل بهم ؟

هذا هو سؤال الأسقيا ملخصا .

وقد رد المغيلي عليه بقوله :

الجواب والله الموفق للصواب أن الملك كله لله والحكم لله من قبل ومن بعد ، فاشكر نعمة الله عليك واتقه فيما ولاك وقلدك من أمور ، وأعلم أن سننى على حمل حمله على عنقه واكتسب فى حمله حتى انقضى أجله فترك ذلك الحكم بينكم ، فحملته أنت ، فاكسب لنفسك فى حمله ما ترجى لك بركته ، وتحمد لك عاقبته فى الدنيا والآخرة ، ولا تقل فى باطل قدرت اليوم على ازالته : هذا لا يلزمنى ؛ لأنى ما فعلته ، انما فعله غيرى ، فكل ما فعله غيرك ثم صار اليك ، ان كان خيرا فاقبته ، وان كان شرا فأزله ولو طال زمانه ؛ لأن الملك والحكم لله وانت واجب عليك أن تصلح كل ما وصل اليك ، ولأجل هذا كان فعلك فى اطلاق من ادعى أنه حر مسلم صوابا ، وكذلك كل مال تعين لمسلم معين ، واجب عليك رده .

وأما القوم الذين وصفت أحوالهم فهم مشركون بلا شك لأن التكفير فى ظاهر الحكم يكون بأقل من ذلك كما بيناه فى السؤال الذى قبل هذا ، فلا شك أن الجهاد فيهم أولى وأفضل من الكفار الذين لا يقولون : لا اله محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لأن هؤلاء الذين ذكرت لبسوا

الحق بالباطل بحيث يضل بهم كثير من جهلة المسلمين حتى يكفر وهو
لا يشعر ص ٤٣ - ٤٦ .

انتهت اجابة المغيلى ، وهى اجابة صائبة من وجهة نظر الدين ومن
وجهة نظر الدولة ، لان الحاكم المسلم فى دولة دينها الرسمى هو الاسلام
يجب عليه أن يستتبع هؤلاء الذين يعتنقون المظاهر الوثنية ويؤلهون
غير الله سبحانه وتعالى ، والسكوت على ذلك تقصير فى حق الدين وفى
حق الدولة .

ومن هذا الموقع المزدوج أفتى المغيلى بجهادهم وقتل رجالهم وسبى
نساءهم وذرائعهم وضم أموالهم الى بيت المسلمين .

المسألة الرابعة

وهى مكونة من ستة أسئلة ، والسؤال الرابع فيه نوع من استعراض
العضلات من جانب الأسقيا ، وليس معنى هذا أن مضمونه كذب فهو معقول
وامكان وقوعه قائم ، وما الظن بامام عادل يتسامع الناس به فى الشمال
والجنوب ، وفى المشرق والمغرب ؟

انهم بلا شك سيستدافعون نحوه وسيهرولون اليه طالبين أن يكون لهم
شرف الولاء له ، والدخول فى طاعته ، ويتأكد ذلك اذا كان سلاطينهم ظلمة
لا يراعون فى الله الا ولا نمة .

وهذا هو السؤال الرابع عطف به على أسئلته السابقة فقال : -

وأىضا بعض المسلمين فى شرقنا وغربنا سمعوا بى وطلبوا أن يدخلوا
تحت طاعتي ، فهل أجيبهم الى ذلك ؟ أو نقف على حكم بلادنا التى أورثنا
الله عن سنى على ؟

ويظهر أن الناس فى السودان قد أنسوا خيرا فى الأسقيا محمد بعد
أن أحاط نفسه بطبقة العلماء من قراء وفقهاء وبعد أن نهض بمملكته فخرج
بها من طور القبيلة الى طور الدولة .

وهذا فضلا عما اشتهر به فى مملكته بل وفى خارج مملكته من تقى

وورع ومن التزام باقامة العدل ودفع الجور ، فلا عجب أن يتهافتوا عليه ،
وأن تهفو نفوسهم الى الدخول فى حكمه .

لكن بماذا رد المغيلى على هذا التطلع الى المجد ؟ وعلى هذا الاحساس
المسرف بالذات ؟

انظر ها هو ذا يقلم أظفار الأسقيا ، وبعبارة أدق : ها هو ذا يقلم
أظفار الكبر فيه ويرده الى جادة التواضع ، والى عدم الانسياق وراء وهم
كاذب أو برق خادع .

فقد يكون وفد هذه الامة من الحاقدين على حاكمهم أو من الظلمة
الذين لا يعجبهم أن يعاقبوا بظلمهم وأن يسرى بينهم وبين غيرهم .

ولهذا لجئوا سياسيا الى دولة الاسقيا وحرصوه على غزو بلادهم
نكاية فى حكامهم ونسيانا أو تناسيا لوطنيتهم التى كانت كفيلة بردعهم
وبضبط سلوكهم فلا يخرجون على قواعد اللجوء السياسى .

وأبسط هذه القواعد انما هو عدم اشتغال اللاجئ السياسى
بالسياسة .

قال المغيلى : -

الجواب والله الموفق للصواب أن الأرض كلها لله يورثها من يشاء من
عباده والعاقبة للمتقين ، والتقوى مخالفة الهوى ، فاحكم بين الناس بالحق
ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله .

ثم اعلم أن البلاد ثلاثة : -

الأول : بلاد سائبة ليس لهم أمير بل مهملون .

فهؤلاء أجبهم الى مبايعتك والدخول تحت طاعتك ؛ لأنه لا يحل لطائفة

من المسلمين أن يكونوا هملاً قال تعالى « واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا » .

وفى صحيح مسلم عن ابن عمر قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : - « من خلع يدا من طاعة لقي الله يوم القيامة لا حجة له ، ومن مات وليس في عنقه بيعة مات ميتة جاهلية » .

الثاني : - بلاد لهم أمير يرعاهم فى مصالح دينهم ودنياهم بحسب الامكان فى هذا الزمان ، وهؤلاء لا يحل لأحد منهم أن ينزع يدا من طاعته ، ولا يحل لأحد أن ينازعه فى رعيته « ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم »

وفى صحيح مسلم عن أبى سعيد قال . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اذا بويح الخليفتان فاقتلوا الاخير منهما ، لا خير فيه .

الثالث : بلاد لهم أمير من هؤلاء الأمراء الذين وصفت : يأخذ المكس بالظلم وبالفساد وعدم الاصلاح ، فان استطعت أن تزيل ظلمه عن المسلمين من غير مضرة عليهم حتى تقيم أميراً عادلاً فافعل ، وان أدى ذلك الى الذاتال وقتل كثير من أعوانك ؛ لأن من قتل منهم شرقتيل ، ومن قتل منكم خير شهيد ص ٤٧ - ٥١ .

والغىلى بهذا الرد الجامع المائع قد كذكف من غرب الاسقيا وحد من طموحه غير المشروع .

المسألة الخامسة

هذه المسألة تعالج شئون المال والاقتصاد أصلاً ، وشئون السياسة والاجتماع تبعاً ، فهى تدور حول ركن هام من أركان الاسلام هو الزكاة . وقد بدأها المغىلى هكذا : -

قولكم : وقد جعل الله هذه البلاد تحت يدى برها وبحرها ولم يعرفوا قبلى الا الظلم والاهمال ، ولم يسمعوا قط من يناديهم لىرسوله ، فأجاب من أجاب بخوف السيف والحمد لله ، وله مزارع كثيرة وبحر واسع كثير خيره فهل لى أن أعمل خراجاً على أرضهم أم لا ؟

وأيضاً : هل يجوز لى أن أنصب عالماً أميناً يجمع زكاة النعم والحرث ويفرقها على مستحقيها من الاصناف الثمانية باجتهاده أم لا ؟

وان جاز لى نصبه ، فهل لى أن أعاقب من أبى أن يؤديها ؟
وان جازت لى عقوبته فما هى ؟
وهل تجوز شهادة السلطان الذى لا يمكس ، ولا حفظ عليه ظلم فى هذا الزمان أم لا تجوز شهادته .

وواضح أن المراد بالسلطان فى كلام الاسقيا انما هو (المختار) بلغة الشام و (العمدة) بلغة مصر ، فقد كان لكل منطقة أو لكل قبيلة بالسودان كبير أو شيخ فى هيئة سلطان .

وتتردد مؤهلاته لذلك بين أن تكون كثرة المال أو كثرة الرجال أو شيئاً من الفضائل الذاتية كسعة الصدر ورجاحة العقل وقوة الاحساس بمتاعب الناس ، ومن هنا سعيه الدائب فى محوها أو على الاقل تخفيفها .

ونمضى الى جراب المغيلى فنجده يقرر أن للاسقيا بصفته اماماً عادلاً ان ينصب عاملاً أو عمالاً لجمع الزكاة وصرافها فى مصارفها التى ذكرها الله تعالى ، لكن ليس له أن ينقل زكاة بلد الى غيره الا على وجه النظر بالأصلح فيفرق فى أهل بلدها ما اضطروا اليه ، وينقل لغيرهم ما اضطروا اليه .

وبعد أن ينصح بالاستغناء بالحلال عن الحرام ، يمتدحه بأنه فارس ميدانه وأوحد زمانه ، ها هو ذا يقول له : -

وإذا كان أمرك الى الآن ما يستقر ، ولا ثبت على العدل ، فاصبر عن ذلك لأنك فى هذا الذى استقبلته وشرعت فيه غريب فى هذا الزمان
ص ٥٤ - ٥٥ .

والخلفية التى تقبع وراء هذا الثناء أن المغيلى كان قد نقم على الحكام فى تلمسان حكمهم الظالم لشعوبهم وتقاعسهم عن رعاية شئون رعييتهم واتخاذهم اليهود بطانة لهم يفضلونهم على بنى دينهم .

وليس هذا فقط ، بل انه كان يرى فى كثير من حكام بلاد الاسلام بعدا عن العدل وقربا من الجور ، ولهذا اعتبر الاسقيا محمدا الأول غريبا فى زمانه بعد له فى حكمه ، وبمحارلته - قدر طاقته - تطبيق الشريعة الاسلامية فى سائر مملكته .

ويمضى المغيلى فى تجليه الدينى واصلاحه الدينوى فيضع الحاكم وجها لوجه أمام مسئولياته الحضارية والعمرانية بقوله : -

« واذا كان الامام ينظر للمسلمين بالتقوى لا بالهوى ، واضطر لدرء مفسدة أو جلب مصلحة ، بأمر لا يخالف الشريعة فليفعله ، لأن المطالب من الامام ونحوه درء المفسد وجلب المصالح بحسب الامكان فى كل زمان ومكان ، فلكل شىء وجه وليس الخبر كالعيان ، ولذلك قال عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه : تحدث للناس أقضية بعدد ما أحدثوا من فجور .

واذا علمت ذلك ينبغي لك أن تجعل للخراج على تلك البلاد ما فيه مصلحة المسلمين وعمارة الارض من غير تضيق .

وينتقل الى مسألة حيوية وعلى درجة قصوى من الاهمية وهى مسألة المرافق العامة بقوله : -

« ولا يحل لك أن تجعل ذلك (الخراج) على المناضد العامة التى فيها الارتقاق العام كالمياه والمراعى والطرقات والمنازل المباحة فان الله لم يجعل ذلك لسلطان ولا غيره . وان كانت البلاد قد فتحت عنوة .

فاترك ذلك كله ، ومن ترك شيئا لله عوضه الله خيرا منه ، وما عند الله خير وأبقى ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « المسلمون شركاء فى ثلاثة : فى الماء والكلا والنار » .

ولا أريد أن أعلق على هذا الكلام بما يثرثر به من يقيمون من انفسهم سدنة فى معبد الاشتراكية وهم أبعد الناس عنها علما وعملا واللهم اجعلنا من الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه .

المسألة السادسة

وهى فى أناس لا يتوارثون على الكتاب والسنة ، وإنما يأخذ مال الميت ابن أخته مثلا .

والاسقيا يسأل : هل تؤول هذه الاموال لميت المال ، أو تترك بأيدي من حازوها ، ويجبرون على التوارث فيها وفى غيرها على شريعة الاسلام ؟

والباحثون يقررون أن البشرية فى فجر حياتها كانت تربط قضايا الارث والاستخلاف بالأم ؛ فالأم هى ربة البيت ، وهى التى يعود اليها جميع افراد الاسرة . وقد كان ذلك أكثر وضوحا لما كانت البشرية تمر بالاطوار التى لم ينتظم فيها الزواج ؛ فقد يكن للام عدد من الأزواج فى وقت واحد ، وفى أمثال هذه الاحوال فان الام وحدها هى التى تمثل الاصلة فى انحدار جميع أفراد العائلة من نسلها .

وقد مر المجتمع الأفريقى قبل الاسلام بمرحلة ارتباط الارث بالام ، وبعد الاسلام ظلت بعض قبائله على عاداتها السابقة فى مسألة الميراث وهو ما أشار اليه الاسقيا محمد فى صدر هذه المسألة ، وقد تطور ذلك الى أن بعض الناس كانوا يقرون الميراث كما جاء به الاسلام ، ولكن اذا كان فى الورثة كبير استولى على جميع التركة وقال : هذا مال اخوانى وأنا اليوم بمنزلة أبيهم فيعطى الزوجة ونحوها نصيبها ويستولى على الباقي حتى اذا مات استولى على تركته الأقوى أيضا ، ثم تطور ، الى أن صاروا لا يورثون الزوجة ولا غيرها من النساء .

ولما كانت هذه الانظمة أنظمة جاهلية ، فان الاسقيا يسأل : هل هذه الاموال لميت المال أم لا ؟

كما يسأل عن أناس مسلمين طردهم العدو من بلادهم فدخلوا بلاد قوم آخرين وسكنوا عندهم ، وبعد ذلك جلا العدو الذى طردهم ، وبقيت بلادهم خالية خاوية ، لم يرجعوا لها ، فأخذ بعض الناس يزرعونها وأهلها يقولون : لا تزرعوا فى أرضنا الا بالكراء .

فقالوا لهم : الارض لله وقد خرجتم منها وتركتوها معطلة ، وكلهم الآن تحت سلطان واحد عادل ، فهل لهم أن يمنعوا أحدا أم لا ؟

• هذه الاسئلة جزء من المسئلة السادسة وليست كلها •

وجوابها : أن القوم الذين من شأنهم أنهم لا يتوارثون على الكتاب والسنة انما يرث منهم الخال وابن الأخت وابن الخال ، ان رأوا أن ذلك حلال وجحدوا شرائع ميراث الاسلام ، فهم كفار ، وان لم يجحدوا الميراث واقرروا أنهم عصاة فليؤمروا بالتوبة والرجوع الى فرائض الله فيما يستقبل ، فان أبوا فللسلطان أن يأخذ أموالهم كلها ، وان تابوا فأرى أن يترك لهم منها ما يثبت أنهم اكتسبوه من الحلال ، وان يقسم معهم ما سواه فيأخذ النصف ويترك النصف •

وأما الذين يستولى منهم الكبير على التركة ويقول : هذا مال اخواني وأنا كآبيهم نحفظ لهم ونربيهم ، فليؤمروا بالتوبة ويأخذ السلطان حقوق ضعفائهم ، فيقوم كل بحقه ، والسلطان ينصفه من غريمه •

وأما الذين لا يورثون الزوجة ولا غيرها من النساء ، فهم كالفریق الاول على ذلك التفصيل •

وأما الذين طردهم العدو من أرضهم فتركوا سكناها ، فليس لهم أن يعطلوها ولا أن يأخذوا أجرة ممن يزرع في مزارعها ويرعى في مراعيها ، انما لهم أن ينتفعوا بها أو يتركوها لمن ينتفع بها حتى يرجعوا اليها ان شاء الله تعالى ص ٥٧ - ٦١ •

واذا بدا الاسفيا هنا حريصا على تطبيق قواعد الدين ، فان المغيبي قد حدد له هذه القواعد وجعلها كأنها محسوسة تتلقاها الحواس مثلما يتلقاها العقل بل قبل أن يتلقاها العقل •

وهو فيما يتعلق بالارض الخالية قد رجع بها الى أصل الخليفة ، فالأرض لمن يزرعها ، لا احتكار ولا اقطاع •

وهؤلاء الذين تركوا بلادهم ثم لم يرجعوا اليها بعد أن زالت أسباب تركهم لها لا يزرعون ولا يتركون غيرهم يزرع ، وهذا - عمليا - تعطيل للارض واضرار بالاقتصاد •

• أما - نظريا - ففساد في الجبله وأنانية •

المسألة السابعة

وهي كالأولى في طولها وتذرع موضوعاتها ، فمن سحر وتنجيم وشعوذة الى تطيف للكيل وغش في الميزان ، ومن اختلاط الرجال بالنساء الى عرى خالص للبنات حتى تتزوج ولو كانت بنت القاضي أو السلطان .

يقول المغيلي للاسقيا : -

ان كل ما ذكرتموه عن بعض أهل تلك البلاد ضلال عظيم ، فواجب على أمير المسلمين وكل من له قدرة من المؤمنين أن يغير تلك المناكر كلها .

وهو يشير على الامير باللجوء الى وظيفة المحتسب بقوله : -
وأما التطيف فهو حرام بالكتاب والسنة واجماع علماء الامة ، وواجب على أمير المؤمنين أن يجعل أميراً على الاسواق لحفظ الارزاق ، فيصلح موازين كل بلد على نسبة واحدة بتقويم الميزان والوزن وتسوية الصنوج حتى لو فرقت مائة مثقال بالصنوج كلها لا ينقص ، ولو جمعتها بتلك الصنوج لا تزيد الا مالا بال به من الزيادة والنقص .

وكذلك يجب اصلاح المكايل كلها كبارها وصغارها حتى تكون كلها على نسبة واحدة .

ولابد من عرض الموازين والمكايل على التغيير في كل حين ، فمن ظهرت عليه الخيانة في شيء من الوزن أو الكيل فعاقبه وأخرجوه من اسواق المسلمين .

ثم يدخل في كلام فنى لا يفهمه ولا يهضمه فضلا عن أن يقوله ويكتبه الا المتخصصون المتمرسون بالكيل والميزان في الاسواق الجامعة .

وعن مسألة الاختلاط والعرى يقول : -
ومن أعظم المنكرات ما ذكرتم من اختلاط الرجال بالنساء ، وكشف العورات ، فواجب على أمير المؤمنين أن يجتهد في منع ذلك كله بما استطاع .

ومن الصواب الواجب أن تنقل كل امرأة عن مواضع التهمة ، وأن يجعل الامير أمناء يطوفون بالليل والنهار والطرقات ، فكل من رأوه يتكلم مع أجنبية أو يدخل عندها أو ينظر اليها فليأخذوه وليأتوا به الى المنولى خطة الحسية ليعنفه ويزجره بما يليق بمثله حسب سوف فعله .

وأما ما ذكرتم من عادة أهل جنى فى أن البكر لا تستر عورتها حتى تتزوج ، فذلك مسكر من أكبر المناكر وأقبح القبائح لم يسمع قط بمثله فى شيء من بلاد المسلمين ، فكيف يزعمون أنهم مسلمون ؟ !!!
انا لله وانا اليه راجعون .

بهذا تنتهى هذه المسألة وهى آخر مسألة فى الكتاب .
وقد ختمه المغيلى بما بدأه به من وعظ الامير وتذكيره ثم بالصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : -
فاتق الله تعالى وانظر لنفسك قبل الفوت ، فانه لا بد من الموت قال تعالى : - « ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب ، ومن يتوكل على الله فهو حسبه ، ان الله بالغ أمره قد جعل الله لكل شيء قدرا » .

وقال تعالى « كل نفس ذائقة الموت ، وانما توفون أجوركم يوم القيامة فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز ، وما الحياة الدنيا الا متاع الغرور » .

صدق الله العظيم ونبيه الكريم ، ونحن على ذلك من الشاهدين والصلاة والسلام الاتمان الاكملان على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين ولا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم ص ٧٠ .

أما بعد : -

فانى أدع المجال لكلام المغيلى كى يعمل عمله ويفرط حمله ، وينقل شحنته الثمينة من الفكر والحماس والابداع الفنى الى أذهان ومشاعر مستقبلية .
وكل ما أرجوه أن يقرأه بعض ذرى النفوذ فى بلاد العرب والاسلام وأن يعوه ويطبقيه .